عبدالله المناعي يوظف المسرح في مواجهة إشكالية الهوية

نواف يونس

توج مسيرته الإبداعية بالحصول على جائزة الدولة التقديرية للعام 2009 في مجال المسرح إلا أنه لم ينتظر كثيراً ليقدم نفسه الى جمهور المسرح في الامارات، فكانت بداياته مبكرة، تعود الى السبعينات من القرن الفائت، عندما لفت الانتباه إليه، مع أعماله الأولى، والتي كانت تميل الى الكلاسيكية، حيث لجأ الى التعامل مع النصوص المسرحية العربية التي يتم اعدادها للعرض المسرحي، برؤية ولغة تتناسبان والحالة المسرحية القائمة وقتذاك، مثل مسرحية "هارون الرشيد" للكاتب عبدالله العباسي، ومن بعدها مسرحية "شمس النهار" لتوفيق الحكيم ومن إعداد المخرج البحريني عبدالله السعدواي، إلا أنها مرحلة لم تستمر طويلاً، فقد كا ن شغفه بالمسرح اشبه بهموم وقدر "سيزيف" حيث تأثر وتفاعل بكيمائية جاذبة، مع رؤى المبدع الراحل صقر الرشود "الكويت" وحنكة ودراية ابراهيم جلال "العراق" وهو ما أهله لامتلاك تصور ناضج للعمل المسرحي المتكامل من خلال اعتماده على الفرجة، التي لا يكتفي من خلالها بجذب انتباه المتلقي وايهامه، بل عمد من خلالها الى وضع هذا المتلقي في قلب الحدث وبعده الدرامي فنياً وفكرياً، وساعده على هذه الإضافة النوعية امتلاكه هذا الكم الضاغط من التمرد، الذي لم تسلم منه حتى أعماله السابقة، فأعلن ثورته مسرحياً على كل ما هو تقليدي، وخاض غما ر التجريب الذي استهواه ليعيد تقديم نفسه مرة أخرى بجدية وثقافية من خلال مسرحية "جثة على الرصيف"، والتي اجمع النقاد حينها على أنها اشبه بالتجربة المعملية، لينطلق بعدها في جملة من الأعمال المسرحية التي كشفت ملامح وسمات المناعي المسرحية، فكان عمله "عسى خير" الذي وظف فيه ما يسمى بمسرح الحلبة، مركزاً فيه على بؤرة ونقطة الارتكاز في الخشبة، تاركاً إياها للممثل، مع اعتماده كسر الحواجز والجدران المسرحية، باشتغاله كمخرج على ابراز ابعاد المشهد الصوري أو البصري الذي يعمد من خلاله على ايجاد ذلك التماس بين الفضائين المسرح ي والحياتي، في ضفيرة محكمة متداخلة، ليجسد من خلالها شخصية هذا الإنسان العربي، الذي أصبحت حياته مرسومة بالقهر والاحباط والانهزام من الداخل، ولم يسبقه على الخشية في ذلك الوقت من وظف الاكسسوارات والازياء والموسيقا والمؤثرات، بتلك المهارة، ليخلق ويكون ويشكل من كل هذه العناصر الفنية ذلك النسيج التقني المتوافق مع أداء الممثل وحركته، فكانت تلك اللوحات التي رسخت مسرح الصورة لديه، وتتوالى أعماله المسرحية "الفريج" و"العشاق لا يفشلون" إلا أنه لم يتوقف أو يكثف بنتائج اشتغالاته التقنية هذه وتوظيفها فنياً، بل عمد الى تعم يق الأبعاد الفكرية لتجربته من خلال توظيف الرموز والدلالات المسرحية التي تزيد من قيمة العمل المسرحي، فكانت مسرحية "كوت بو مفتاح" التي برع فيها في استخدام السنوغرافاي من خلال "السرير" الذي يحتوي كل الادوات التي يحتاج العمل المسرحي، كما أنه يحول "المعطف" الى مصدر الخطر الذي يسبب الوباء وهو يجتاح البلاد

.

إن المسرحي عبدالله المناعي تفهم واستوعب ما يمثله الاتجاه الاماراتي من اشكالية سواء على مستوى المسرح الاماراتي أو العربي، خصوصاً أن سبله ووسائله عدة ومتنوعة ومختلفة، مثل اتجاهاته ومدارسه وتياراته، فابتعد عن التعامل مع التجريب المحاكي، أي استنساخ التجارب الابداعية الغربية، بل عمد الى محاولة الابتكار، وامتلاك الخصوصية من خلال استخلاصه العناصر التجريبية الصالحة والمناسبة للبيئة المحلية وخيارها الاجتماعي، في مرحلة التغيير والتطوير، فنجح في تكوين بناء مسرحي خاص على مستوى اللغة والدلالات، كما هو على المستوى التقني، فلم يبدأ برنميتيا ومن ثم يتحول الى البروكية أو المونشكينية، بل واصل اشتغاله واغماده على محاولات التجريب والتأهيل من خلال استلهام التراث وطقوسه الاجتماعية، كما شاركه في هذا التوجه كوكبة من المؤلفين والمخرجي ن الاماراتيين منهم اسماعيل عبدالله والراحل سالم الحتاوي وحسن رجب وابراهيم سالم وناجي الحاي وجمال مطر وغيرهم .

لقد فهم عبدالله المناعي خلال مسيرته المسرحية التي امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً، أن التجريب يرتبط أساساً بتاريخ طويل من الاجتهاد والاشتغال على اللغة والحركة واللون والجسد، والاعتماد على المعرفة العقلية والحدسية والاختيارية، وهو لا يتسنى لكل من لا يعي، أنه "أي التجريب" أداة حقيقية للإبداع من خارج المعتاد والمألوف، وأنه يتطلب جاهزية فنية وفكرية دقيقة، تمر ببرامج اعداد الممثل وبناء الورش والمختبرات الم سرحية، وعناصر العرض الفنية، بطل ما يتطلبه من جماليات وحس المغامرة، كما شدد عليها النقاد في أكثر من مكان ومقال .

لقد قدم عبدالله المناعي خلال مسيرته مجموعة من الأعمال المسرحية التي تناول فيها قضايا وهموم المواطن الاماراتي، برؤية انسانية شفافة، تعامل فيها مع العلل والآفات التي تفسد تربة المجتمع وثمارها اليانعة، وتضع الأصبع على الجرح، قبل أن يستفحل الأمر، مجسداً رسالة المسرح الاجتماعية والسياسية والفكرية والانسانية والحضارية شكلاً ومضموناً مجتهداً في البحث الأصيل عن المبتكر، موظفاً إياه بحيث يلبي الاحتياجات الروحية والمادية، من خلال صيغ فنية مرئية ومسموعة وذات دلالات فكرية تبدو ضرورية في مواجهة اشكالية الهوية والانتماء في عالم ينتج قيمه الاستهلاكية، التي لا ترحم ولا تقبل بمبدأ القسمة، ليجسد ثقافة المكان واصالته وملامحه الاجتماعية والفكرية، في لبوس مسرحي ويحمل في ابعاده ملمحه الجديد وتأويله الجديد في معناه الجديد، ويسعى لمواجهة تلك المتغيرات والتحولات التي تريد أن تعصف بكل شيء أمامها ومن حولها، ليظل المناعي في مقدمة من اسهم في بلوغ الحركة المسر حية في الامارات قامتها ورصيدها الفني والفكري لكونه من القلائل الذين جسدوا دور المخرج وابعاد ثقافته، إذ استطاع أن يستوعب دوره ليس كمخرج وحسب، وإنما كناقد ومقيم للعناصر الفنية التي يشتغل عليها منذ اختياره النص والممثلين، مروراً بالتقنيات السمعية والبصرية، وصولاً الى تحليل النص والشخصيات ودوافعها، ليخلق "التيمة" التي يرتكز عليها العمل المسرحي من خلال رؤيته الانسانية والاخراجية معاً .